آراء علماء العقيدة

حول مفهوم « القرآن كلام الله قديم أم حادث

د. مبارك حسن حسين إسماعيل

الأستاذ المساعد

بقسم العقيدة والفلسفة كلية أصول الدين

الكلام على أن القرآن كلام الله ، والفرق التي قالت برأيها في هذه المسألة ينحصر فيما يأتي :

أهم الفرق التي تدخلت وناقشت هذه المسألة هي :

(أ) السلف .

(ب) الأشاعرة .

(جـ) المعتزلة .

سنتكلم عن كل فرقة وآرائها وأدلتها ونبين الرأي الموافق للنقل والشرع في حيدة تامة دون التأثر برأي دون رأي قاصدين الوصول إلى الحقيقة المنشودة فنقول وبالله نستعين :

القرآن في الأصل : مصدر ، فتارة يذكر ويراد به القراءة قال — تعالى — « وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهودا » أي قراءة الفجر . .

وقال — ﷺ — « زينوا القرآن بأصواتكم » (١) أي زينوا القراءة بأصواتكم .

---

(١) أخرجه أبو داود والنسائي .

وتارة يذكر ويراد به المقروء ، قال الله — تعالى — « وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون » أى المقروء وهو القرآن الذى هو كلام الله — تعالى — وكقول الرسول ﷺ : « إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف » (١) .

والكلام صفة من صفات الله — تعالى — وهو إما أن يراد به اللفظ المقروء والمحفوظ .

وإما أن يراد به : المعنى النفسى الدال عليه بالألفاظ المتلوة والمقروءة وهو قائم بالذات العلية ، ولفظ القرآن فى الجملة يفيـــد معنى الجمع قال — تعالى — : « إن علينا جمعه وقرآنه » هذا ويقع الاختلاف بين الفرق فى قضية « هل القرآن كلام الله مخلوق حادث أم قديم » ؟ .

فالسلف : قالوا : إن كلام الله صفة له قائمة بذاته وهو يتكلم بصوت يسمع .

وهذا نوع الكلام قديم ، أما كتابتنا وقراءتنا له فمخلوقة .

فبناء على رأى السلف يكون المتكلم : هو عبارة عمن صدر منه الكلام مباشرة ، أو هو المتكلم به أو من فعل الكلام ، أو هو : عبارة عمن أحدث الكلام .

فيكون المعنى : أن الله المتكلم بمعنى : فعل الكلام وحصل منه وصدر « فالكلام صفة ثابتة لله . والدليل على أن هـذه الصفة ثابتة له ما جاء فى قوله — تعالى — « وكلم الله موسى تكليما » أى أكد الفعل (كلم) بالمصدر وهو تكليما ، لرفع المجاز من أن يكون الكلام صـدر من الله بواسطة غيره . ولهـذا قال صاحب الطحاوية — ردا على من زعم أن المسموع

---

(١) أخرجه مالك فى الموطأ ورواه البخارى ومسلم .

المنزل والمقروء والمكتوب ليس كلام الله — « كلام الله منه بدأ وإليه يعود » (١)

الأدلة النقلية :

أستدل السلف على أن الله موصوف بالكلام من النقل ، قال الله — تعالى « ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمة ربه »(٢)

وقال — تعالى — « إنى اصطفيتك على الناس برسالاتى وبكلامى »(٣)

وقال — تعالى — « وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله » (٤)

وقال — تعالى — يريدون أن يبدلوا كلام الله » (٥)

وجاء فى الحديث الشريف « مامن عبد إلا سيكلمه الله يوم القيامه ليس بينه وبينه ترجمان » .

وكما استدلوا بالنقل فقد استدلوا على مدعاهم بالعقل وهى مايلى :

الأدلة العقلية :

يقال : إن الكلام صفه كمال — وضده البكم وهو صفة نقص — والله كامل بذاته إذن يجب أن تثبت له صفة الكلام .

كما يقال : إذا ثبتت هذه الصفه للمخلوق الحادث فالخالق أولى بأن تثبت له هذه الصفة — لأنه إذا أعطى الكمال لغيره فأولى أن يوصف به معطى هذا الكمال .

(١) شرح العقيده الطحاويه ص١٣٧ (٢) الآية ١٤٣ الأعراف
(٣) الآية ١٤٤ الأعراف (٤) الآية ٥٥ البقره
(٥) الآية : ١٥ الفتح .

والدليل على أن الكلام من صفات الكمال : أن الله — تعالى — وبخ وبكت عباد العجل وأبان قلة أفهامهم ، كما بين بطلان ألوهية العجل من حيث إنه لا يتكلم ولا يملك لهم ضرا ولا نفعا فقال الله — تعالى — « ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا » وفي آية أخرى « أفلا يرون ألا يرجع إليهم قولا ولا يملك لهم ضرا ولا نفعا » وقال الله في وصف المنافقين « صم بكم عمى فهم لا يرجعون » .

هذا هو رأي السلف في مفهوم صفة الكلام ، ومفهوم المتكلم ، والأدلة على رأيهم من النقل والعقل . ا.هـ

رأي المعتزله

يرى المعتزله أن القرآن كلام الله المكون من الحروف والأصوات والألفاظ المتلوه فهو حادث ، وغير قائم بذاته تعالى ، لاستحاله قيام الحوادث بذاته تعالى . ويعنوا معنى « متكلما فقالو : « المتكلم هو الخالق الكلام في غيره » .

أي خالق الكلام في محل ، فيكون محتاجا إلى المحل ، والمحل حادث ، فيكون كلامه — تعالى — حادثا .

هذا هو رأي المعتزله في صفة الكلام يتضح منه أنهم ينكرون هذه الصفة ويؤولون كل ما ورد من الآيات الداله على اتصافه — تعالى — بالكلام تأويلات يخرجها عن مدلولاتها الحقيقيه إلى مدلولات مجازيه ، ليس بينها وبين المدلول الحقيقي أية صلاته فقالوا في قوله « وكلم الله موسى تكليما » .

بأن الله خلق الكلام في الشجرة ، ثم سمعه موسى — عليه السلام من تلك الشجرة .(١)

---

(١) شرح مطالع الأنظار ص ١٨٣

فإيماء إلى تأثرهم بكلام الفلاسفه فى الصفات ، وإنكارهم لها أصلا ، فإنهم ينكرونها ويعطلون الذات الإلهية منها ، فهم معطلة الذات ، نفاة الصفات ، ثم يزعمون بأن صفة الكلام ترجع إلى صفة العلم ، وترجع إلى الخواطر النفسية .

أدلتهم :

١ — قالوا : فى قول الله — تعالى — « إنا جعلنـــــاه قرآنا عربيا » فالمجعول هو المخلوق لأن الجعل : هـو الخلق — والمخلوق حادث ، إذن القرآن حادث (١)

الرد على هذا الدليل : نقول لهم : إن « جعل » إذا كانت بمعنى : « خلق » تتعدى إلى مفعول واحد ، كما جاء فى — قوله — تعالى — « وجعل الظلمات والنور » : أى خلق وكما جاء أيضا فى قوله — تعالى — « وجعلنا السماء سقفا محفوظا » أى خلقنا وإذا جاءت « جعل » متعدية إلى مفعولين ، فإنها لم تكن بمعنى : خلق بل تأتى بمعـنى : صير ، كما جاء فى قوله — تعالى — « ولا تجعلوا الله عرضه لأيمانكم » وفى مثل قوله « إنا جعلناه قرآنا عربيا » بمعنى : صيرناه قرآنا عربيا (٢) كما تأتى « جعل » بمعنى : انزل ، فى قوله — تعالى — « ولـكن جعلناه نورا » أى أنزلنا نورا (٣)

٢ — قالوا فى أدلتهم التى أستدلوا بها على مدعاهم ماجاء فى قوله تعالى « وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفه » .

وجهة نظرهم : « إذ » ظرف لما مضى من الزمان ، فيكون قوله الواقع فى هذا الظرف مختصا بزمان معين والمختص بزمان محدث لأن الزمان حادث ، فما وقع فيه فيكون حادثا مثله .

---

(١) حاشية الدر الفريد ص٣٤ والعقيده الطحاويه ص١٢٨ وأنظر التنبيه والرد ص ١٣٠ للملطى .

(٢) العقيده الطحاوية ص ١٢٧ (٣) التنبيه والرد ص ١٣١ للملطى

الرد على هذا الدليل :

نقول لهم : إن كلامه — تعالى — لا يختص بزمان ، ولا يحويه المكان. فكلامه لا يقال عنه : إنه مختص بالزمان الماضى أو الحاضر أو المستقبل. فهو — تعالى — متكلم مطلقا.

٣ — قالوا : « الله خالق كل شىء » :

وجهة نظرهم : إن القرآن شىء فيكون داخلا فى عموم « كل» فيكون مخلوقا .

الرد عليهم :

نقول لهم إذا سلمنا! لكم جدلا أن القرآن داخل فى عموم « كل» فلماذا لا تعترفون بأن أفعال العبادة ، داخلة فى عموم « كل » فتكون ضمن خلق الله — تعالى . ؟

ولكن منطوق كلامكم أنكم أخرجتم أفعال العباد من هذا العموم التى تفيده لفظه « كل » وقلتم أنها مخلوقة بقدرتهم.

ونحن أيضا — مادمتم خرمتم القاعدة ، فنحن أيضا نخرم القاعدة ونقول. الله خالق كل شىء موجود ماعدا ذاته — تعالى وصفاته فإنهما قديمان أزليان. ثابتان له أزلا وأبدا.

فعموم « كل» فى كل موضع بحسبه ، ويعرف ذلك بالقرائن ، كما جاء فى قوله — تعالى — « تدمر كل شىء بأمر ربها فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم » ومساكنهم شىء . ولم تدخل فى لفظ العموم « لكل ».

فيكون المعنى « تدمر كل شىء يقبل التدمير بالريح عادة ، وما يستحق التدمير إذن بناء على هذا المفهوم للفظ « كل» نقول إن المراد من قوله تعالى.

«خالق كل شيء» أي كل شيء مخلوق، وكل موجود سوى الله . تعالى فهو مخلوق فدخل فى هذا العموم : أفعال العبـاد ، ولم يدخل فى العموم الخالق ، تعالى . وصفاته لأنها لازمة لذاته ، تعالى أزلا وأبدا(١).

إذن ، إذا كان« الله خالق كل شيء مخلوقا لا يصح أن يكون دليلا للمعتزله .

٤ — ومما استدلوا به على أن القرآن حادث «قول الله تعالى» وما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث فأخذوا بظاهر الآية : تقول لهم : إنه كان محدثا أثناء نزوله على النبي محمد ﷺ .

هذا ومما أبطل استدلالهم بقول الله تعالى : «نودى من شاطىء الواد الأيمن فى البقعة المباركة من الشجرة »؟

على أن الكلام خلقه الله تعالى : فى الشجرة ، فسمعه موسى منها .

هذا كلام باطل لأنهم أخذوا جزءا من الآية وعموا عما قبلها وما بعدها وأصل الآية كما جاء فى القرآن المجيد « فلما أتاها نودى من شاطىء الواد الأيمن فالنداء : هو الكلام من بعد ، فسمع موسى عليه السلام : النداء من حافه الوادى ثم قال : «فى البقعة المباركة من الشجرة» أى أن النداء كان فى البقعه المباركة من عند الشجرة ، كما تقول : سمعت كلام خالد من البيت ، يكون من البيت لا بتداء الغاية. وليس البيت هو المتكلم كما يدعى المعتزله.

ولو كان الكلام مخلوقا فى الشجرة لكانت الشجرة هى المتكلمة وهى القائلة : «ياموسى إنى أنا الله رب العالمين» .

وهذا كلام باطل لأنه لم يقل به أحد ممن عنده مسكة من العقل .

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية صـ ١٢٧

ولو كان هذا الكلام صادرا من غير رب العالمين لكان قول فرعون «أنا ربكم الأعلى» صدقا، إذ كل من الكلامين عندهم مخلوق، قد قاله غير الله.

ومع ذلك تمادوا فى أباطيلهم وفرقوا بين الكلامين على أصولهم الفاسدة فقالوا : هذا كلام خلقه الله فى الشجرة ، وهذا كلام خلقه فرعون فحرفوا وبدلوا واعتقدوا خالقا غير الله لقولهم : إن العبد يخلق أفعاله بقدرته استقلالا .

والخلاصة : أن مفهوم المتكلم ، هو من خلق الكلام فى غيره ، يلزم على هذا المفهوم أن ما أحدثه الله فى الجمادات — كالشجر — وما خلقه فى الحيوانات فهو كلامه .

بل يكون متكلما بكل كلام خلقه فى غيره زورا كان أو كذبا — فيتعالى الله عن ذلك علوا كبيرا .

كما يلزمهم أن يوصف الله بالصفات التى خلقها فى غيره من الألوان والروائح والطعوم والطول والقصر وهذا بدهى البطلان .

٢ — رأى الأشاعرة

إذا أردنا أن نقف على رأى الأشاعرة فى هذه المشكلة ، فلا بد لنا أن نتعرض لرأى شيخهم أبى الحسن الأشعرى مؤسس هذه الطائفة .

فهل يرى الشيخ أبو الحسن الأشعرى : أن القرآن المكون من الألفاظ الدالة على معانى لها قديم بلفظه ومعناه أو قديم بلفظه دون معناه أو أن معناه قديم وألفاظه حادثة ؟

والحق بعد التحرى والوقوف على رأيه فى كتابيه : الإبانة واللمع — وهما أشهر كتبه الذى دون فيهما آراءه العقدية .

نجد أنه يلزم الصمت فى الإجابة عن هذه المشكلة ، بينما ينسب اليه الشهرستانى القول بحدوث الألفاظ وقدم المعنى النفسى .

أما متأخرو الأشاعرة فيرون أن كلام الله — تعـــالى — يطلق بالاشتراك على شيئين :

الأول : يطلق على الصفة القائمة بذاته — تعالى — وهى المعنى الذى دل عليه اللفظ المكون من الحروف والأصوات . ويسمونه بالكلام النفسى وهو قديم عندهم :

الثانى : يطلق على الألفاظ المكونة من الحروف والأصوات المنزلة على سيدنا محمد ﷺ فيسمونه بالكلام اللفظى ، ويقولون عنه إنه مخلوق وحادث ، ولكن لا يقال إلا فى مقام التعليم:

ولكن مخالفوهم : ردوا عليهم بأن القرآن كلام الله — تعالى قديم بلفظه ومعناه لأنه ثبت أن الله كلم موسى — عليه السلام وناداه من جانب الطور ، والنداء يكون بالكلام المكون من الحروف والأصوات والألفاظ وكلها كلام الله كما قال — تعالى — «وكلم الله موسى تكليما» .

إذن لا فرق فى كلامه — تعالى — بين الألفاظ والمعانى الدالة عليها ، فكلها كلام الله يجب الإيمان بها على أنها قديمة وليست مخلوقة .

أما كيفية كلامه — تعالى — كيف تكلم فهذا يسند علم حقيقته إلى الله وحده .

أما أدلة الأشعرى على أن القرآن كلام الله غير مخلوق ، فقد صور فى كتابيه : الإبانة واللمع دليلا عقليا استمد مادته العلمية من القرآن المجيد(١).

---

(١) الإبانة ص ٥٢ — ٥٣ للأشعرى وأنظر : اللمع فى الرد على أهل الزيغ والبدع ص ٣٣ للأشعرى .

فقال : « ومما يدل من كتاب الله — عز وجل — على أن كلامه — تعالى — غير مخلوق — قوله تعالى — : « إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون » .

فقال الشيخ : « فلو كان القرآن مخلوقا لوجب أن يكون مقولا له : « كن » فيكون ولو كان الله — عز وجل — قائلا للقول « كن » لكان للقول قول آخر وهذا يوجب أحد أمرين :

الأول : إما أن يؤول الأمر إلى أن قول الله غير مخلوق — وهو المطلوب .

الثاني : أو يكون كل قول واقعا بقول آخر وهكذا تتسلسل الأقوال إلى ما لا نهاية والتسلسل باطل لأنه يؤدي إلى سلسلة من الحوادث إلى ما لا أول ولا نهاية له ، وما دام التسلسل باطلا فيبطل ما يؤدى إليه — وهو أن القرآن مخلوق — ويثبت نقيضه — وهو أنه غير مخلوق ، وهذا هو المطلوب .

وقد رد مخالفوهم بأن كلام الله جميعه من معان وألفاظ وحروف وأصوات قديم ، وإنما الحادث فهو كلامنا الذى نتلفظ به من قراءة وكتابة ونطق فقراءتنا للقرآن وتلاوتنا لآياته هى الحادثة .

وردوا قولهم هذا بأن القرآن كلام الله يطلق على المعنى النفسى ، ويسمونه بالكلام النفسى ويستدلون بقول الشاعر (الأخطل) :

إن الكلام لفى الفؤاد وإنما   جعل اللسان على الفؤاد دليلا

فقالوا : إذ لو كان الكلام [مفهومه : المعنى النفسى لزم أن الأخرس يسمى متكلما لقيام الكلام بقلبه ، وإن لم ينطق به ويسمع منه .

هذا وقد ورد في الصحيحين : أن الله تجاوز عن أمته عما حدثت به أنفسها ما لم تتكلم به أو تعمل به .

فلو كان ما في النفس من خواطر يسمى كلاما لم يتجاوز الله عنه ولكان يؤاخذ الأمة عليه ، ولما قال النبي (ﷺ) : « تجاوز عن أمتي الخطأ والنسيان وما حدثت به نفسها ، وقولهم في تعريف الكلام « أن الكلام صفة أزلية ، قائمة بذاته ، ولا تتعلق بمشيئته وقدرته » يلزم عليه أن يكون الله يتكلم بغير إختياره وارادته .

وهذا يلزم عليه أن يكون الله مقهورا ومجبورا على أن يتكلم « تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا .

وقولهم : « إن الكلام معنى واحد هو الأمر والنهي والخبر والاستخبار » إن عبر عنه بالعربية كان قرآنا ، وإن عبر عنه بالعبرانية كان توراة .

الجواب : إن من المعلوم بالضرورة بالعقل والدين أن التوراة إذا أعربناها لم يكن معناها : معنى القرآن ، والقرآن إذا ترجمناه إلى العبرانية لم يكن توراة . وأيضا في القرآن نفسه مفهوم الآيات يختلف من آية إلى آية فمثلا : معنى آية الكرسي غير معنى « قل يا أيها الكافرون » .

وقولهم : « أن كلامه ليس بحروف ولا أصوات ... » لإنه يترتب على أنه لو كان حروفا وأصواتا ما يأتي :

أولا : إن الحروف والأصوات لا بد لها من أدوات ومخارج .

ثانيا : إن الصوت يستحيل بقاؤه ، كما يستحيل بقاء الحركة ، وما أمتنع بقاؤه أمتنع قدم عينه .

ثالثا : يلزم من الصوت والحروف التعاقب أي : أن يأتي حرف بعد

حرف ، والقديم لا يكون مسبوقا بغيره ، وهذا ممتنع ، فيلزم أن يكون القديم هو المعنى القائم بالذات العليه .

وقد رد على الأشاعره فى هذه الشبهه بما يأتى :

أولا : أن ما زعموه من الحروف والأصوات وتعاقبها إنما تكون فى المخلوق الذى يتكلم بفم ولسان أما الخالق — جل وعلا — فكلامه وإن اشتمل على الحروف والألفاظ لا يقال أنها متعاقبه وما أسبقية لبعضها على بعض لأن الله ليس كمثله شيء ، ولأنه قال « هـل تعلم له سميا » أى مثيلا أو شبيها .

ثانيا : إن الله قال فى وصف الكفار «اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون» .

فهل للأيدى والأرجل التى ستتكلم يوم القيامه ، وتشهد على الإنسان بما عمل ، لها فم ولسان ومخرج تخرج منه الكلمات أم أنها تنطق بقدرة الله من غير أن يكون لها ذلك؟

طبعا أن الله قادر على أن يجعلها تنطق وتتكلم بدون فم ولسان لأن قدرته لا تعزب عن شيء من مخلوقاته . قال — تعالى « وهو على كل شيء قدير » .

ثالثا : لقد ثبت أن الذراع الذى سممته اليهوديه وقدمته للنبى ﷺ ونطق الذراع أنه مسموم فهل كان لها لسان وفم ؟

الجواب : كلا : لأنها نطقت بقدرة الله — تعالى — .

رابعا : إن القول بأن الصوت يستحيل بقاؤه كلام غير مسلم لهم لأنه عارى من الأدلة النقليه والعقليه .

وكل دعوى تقام بلا دليل يمكن للخصم أن يقول بضدها .

هذا وقد ثبت أن الأصوات باقية فى الجو ، وتحاول الدول جذبها وأكبر برهان على هذا : أن أجهزة التصنت تعمل ليل نهار للتصنت على الناس ونقلها ما يجرى فى الدول ولو كانت بعيدة على مسافات الأميال .

وهاهو المذياع يذيع فى أمريكا أو فى منطقة الشرق ويسمعه العالم فى أرجاء المعموره فلو كان الكلام بمجرد خروجه من الفم يفنى ويتلاشى لما أمكن سماعه فى مكان آخر من الأمكنه النائيه بمئات الألوف من الأميال .

والخلاصه : أن الله تكلم بكلام المشتمل على الحروف والأصوات لثبوت ذلك بالكتاب الكريم من أن الله كلم موسى وناداه ، وإن موسى سمع كلا الله منه مباشره بلا واسطة شجر ولا حجر ولا من غيرهما .

ونحن إذا وازنا بين آراء السلف والمعتزله والأشاعره نجد أن السلف قالوا بقدم كلامه — تعالى — المشتمل على الحروف والأصوات كما نجد أن رأى المعتزله كان على الضد من كلام السلف وقالوا بحدوث كلامه — تعالى — المشتمل على الحروف والأصوات لكونهم ينكرون صفة الكلام القديم لله — تعالى — بزعم الفرار من تعدد القدماء .

أما الأشاعره فقد جعلوا بعض الكلام قديما وهو ما أطلقوا عليه الكلام النفسى وبعضه حادث وهو الكلام اللفظى ، وهذا لا يرضى ما أطلقوا على أنفسهم سلفين وقالوا إن الخطأ الذى وقعوا فيه هو قياسهم كلام الخالق على كلام المخلوق ، هذا ما أردنا بيانه وتوضيحه والله الهادى إلى الصواب ا . هـ .